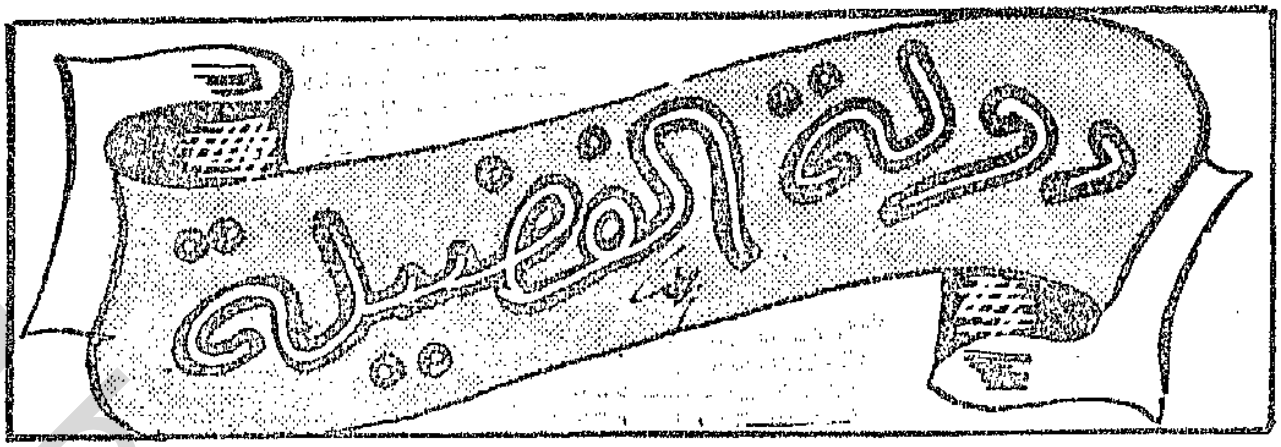

كانت جـــزيرة يوكاتافيا فى المحيط الهندى جـــزيرة قائمة بنفسها فى وسط المحيط وكانت محكومة بحاكم عام يســـاعده مجلس من اعيان الجزيرة ، وكان اهلها على درجة فائقة من المدنية والغنى والترف والرقى الاجتماعى وكان لهم دين خاص بانفسهم ومعبد كبير فى وسط المدينـــة ، يعيش فيه عدد من الرهبان

وعلى الرغم من ان ســـكان الجزيرة كلهم كانوا ينصـــتون بخشوع الى العظات التى يتلقونها فى المعبـــد ، فان الآثام والشرور كانت باسطة ظلها على الجزيرة ، وكان الرجل الفاضـــل هو الذى لا يحتسى من النبيذ كل يوم اكثر مـــن ثلاث زجاجـــات ، والمـــراة الفاضلة هى التى ليس لها اكثر من اربعة عشاق ، والتاجر الفاضل هو الذى لا يبيع اكثر من نصف بضاعته مغشوشا ، والقـــاضى الفاضل هو الذى لا يرتشى باكثر من السمن والعسل ، والـــكاهن الفاضل هو الذى لم يكن يستغل ضعف اكثر من امرأة واحدة فى الاسبوع !.

وحدث فى احد ايام الثلاثاء وهو يوم العطلة المقدسة فى جزيرة يوكاتافيـــا ان اعـــلن الكاهن فى الصباح انه سيتحدث فى عظتـــه عن فتن الشيطان ، فاشـــتاق ابليس ان يسمع شيئا عن نفسه غير اللعنات التى كانت تصب على رأسه فى جميع انحاء العـــالم ، ومن شفاه ، اكثرها منـــدى من لعابه ، ودخل المعبد مع الداخلين

وقد امتلا قلب الشيطان فرحا عندما راى ان حوالى مائة فى المائة من المنتظرين لسماع عظة الكاهن لكل منهم حساب معه ، واتم سروره ان يترعرع الرياء فى الجزيرة بهذا الشكل الباهر ، وفى هذا العدد الضخم من الناس

ولكن عندما ابتدأ الكاهن فى عظته بصوته العريض المؤثر — وكان هذا الكاهن هو كبير الرهبان مقاما وسنا ، وكان هو الشخص الوحيد فى الجزيرة الذى قاوم فتنة الشيطان بمنتهى القوة والعناد والاصرار — وجد الشيطان ان عظة الكاهن الاكبر ليست الا ترجيعا لالاف المعنات التى يسمعها كل يوم ، والاف التهم التى يحسب نفسه بريئا من بعضها على الاقل ، فتوهج الشرر فى عينه الواحدة ، وتصاعد الدخان من انفه كما لو كان خارجا من مدخنة ، وكان عليه ان يترك الكاهن يثرثر كما يشاء ويذهب الاشراف على بعض عملياته الغرامية المستعجلة فى احد القصور ، لولا ان سمع الكاهن يختم عظته قائلا :

(اطردوا الشيطان من نفوسكم ومن منازلكم ، ومن جزيرتكم وستعلمون يومئذ فى اى فردوس تعيشون) ..

فانفرجت اسارير الشيطان فى الحال . وخطر له خاطر . فبدا لجمهور المصلين ، وصرخ فيهم صرخة اهتزت لها اركان المعبد ثم صاح :

« يا اهل يوكاتافيا .. لقد استمع الشيطان لنداء كاهنكم ، وسيرحل عن ارضكم ، تاركا لكم احرارا فى الفردوس الموعود ، ولن يعود اليكم حتى يشم لحية الكاهن محترقة فى لهب البركان »

واختفى الشيطان من المعبد كما ظهر ، وترك الجميع فى ذهول لم يكادوا يفيقون منه حتى وجدوا انفسهم يتعانقون ، وحتى الد الاعداء نسى كل منهم بغضه وحقده ، واندفع بعضهم الى بعض بصدور مطهرة ، بريئة من الغل والبغضاء ، والفوارق التى كانت قائمة كالجدران الغليظة بين الطبقات انهارت فى لحظة ، ووجد الحاكم العام نفسه يعانق الكناس كانه صديقه العزيز

وعندما راى الكاهن الاكبر هذه الظاهرة الجديدة ، رفع كفيه الى السماء شاكرا ، وقد بللت دموع الفرح لحيته البيضاء

واعلنت الافراح فى المدينة سبعة ايام ، وحتى فى هذه الايام التى كانت تكثر فيها امثالها الجرائم وينتشر الفساد ، لم تسجل دوائر الشرطة فيها مخالفة واحدة للقانون ، والحديقة العامة المظلمة التى كانت ملجأ للعشاق المستهترين خلت لاول مرة منذ انشائها من كل ما كان يراه الكاهن الاكبر صفعات على خد الفضيلة ، وآيات مخجلة على تدهور الاخلاق

واقفرت الحانات والمقاهى واللاهى ، وقضى اصحابها الايام السبعة يمسحون اصابعهم ، ويتذمرون هم من الرائحة الكريهة التى تنبعث من دنان الخمر فأراقوها على التراب بتسامح ، وبلا حزن على المال المفقود ، واغلقوا حاناتهم وانصرفوا الى منازلهم غير آسفين .

وقضاة المحاكم ومحاموها ، وعمالها قضوا نفس الايام بلا قضايا وحتى القضايا المتاخرة تلاشت من الاوراق ، فاغلقوا محاكمهم ، وسلموا مفاتيحها للحاكم العام

والحاكم العام نفسه وقف فى مجلس الاعيان ، وخطب فيهم شاكرا اياهم على الجهود التى بذلوها فى معونته اثناء العهد البغيض ، ثم اعلن ارفاض المجلس ، وتسريح الجيش والشرطة والغاء الضرائب التى لم يعد هناك مبرر لجبايتها من الناس

ثم اغلق المجلس ودفن مفتاحه فى حفلة باهرة تحت عتبة الباب مع وثيقة تاريخية بتاريخ وطبيعة هذا التطور الغريب ، ثم طلب مجموعة من الصحف الصادرة فى نفس اليوم ليدفنها مع الوثيقة والمفتاح ، فاخبر ان الصحف كلها من يوم رحيل الشيطان ، لم تعد تجد مادة للكتابة ، لا من الاعراض ولا من السرقات والجرائم ، ولم تعد لها طاقة على تزييف المدائح ، فتعطلت كلها عن الصدور !!

واكتفى الحاكم العام بان زاد على محتويات الحفرة سيفه وصولجانه ثم هال التراب بنفسه على الاشياء المودعة ، وعرج على

السجن ، ففتح أبوابه ،ثم انصرف الى منزله بلا حسرة ولا زهو ، وكأنه فرد من الناس

ولم تعد فى الجزيرة حاجة الى المصارف والمرابين ، فاسترد الناس ودائعهم وحملوها الى منازلهم فى غير خوف من العدوان

وافلست فى بضعة ايام مئات من الصناعات والمهن التى كانت قائمة على حاجة سكان الجزيرة الى الكماليات

وحتى تجارة الملابس نفسها وما تفرع منها اضمحلت ، لان سكان الجزيرة فى مثل جوهم الحار ، وجدوا أن هذه الملابس ما دامت لا تؤدى الوظيفة الاولى وهى الوقاية من الجو ، فقد اصبحت من تأصل الفضيلة المطلقة فى النفوس ،عديمة الجدوى خصوصا وانها كانت اداة لستر المساوىء الجسمية ، واظهار الحسنات مضاعفة ، وتذكية الشهوات ، وهم فى حالتهم الحاضرة غير محتاجين الى هذه الاداة ، فنزعوها عن انفسهم وخرجوا رجالا ونساء عرايا فى الطريق ، بلا خوف من العيون الزانية التى طهرتها نفحات العهد الجديد

وكان الشيطان قد اخذ معه جنوده من الذباب والبعوض والقمل والبراغيث وما تحمل فى بطونها وارجلها من جراثيم ، وترك الناس انفسهم لرحمة الله ، فأغلق الاطباء عياداتهم ، وعادوا الى بيوتهم لاول مرة من غير ان يعرجوا على المصارف ليقيئوا فيها ما جمعوه طول النهار . ولكنهم مع ذلك كانوا سعداء ، وغير نادمين كالعادة على ان العشرين جنيها لم تكن تسعين !

واقفر المعبد نفسه لان الناس لم يعودوا يرون انفسهم فى حاجة الى وساطة بينهم وبين الله

وتكدست الايدى العاطلة فى الجزيرة بطبيعة الحال ، ولكن احدا لم يمت من الجوع ولا احس به ، لان الذى عنده قوت اعطى الذى ليس عنده ، بلا من ولا شفاعة ولا كتابة فى الصحف عن مبرة فلان وكرم علان !

والمتاجر الوحيدة التى ظلت على عهدها هى متاجر الخبز والطعام ، وحتى هذه قصرت عملها على تموين السكان بما لم يعودوا فى حاجة الى اكثر منه من مطالب الجسد الضرورية . بغير ترف ولا سرف ولا فتك بطير ولا حيوان ، ولم يعد فى الجزيرة خيانة ولا رياء ولا حسد ولا نميمة ولا كذب ولا كبرياء ولا طموح الى ما فى يد الناس

ولم تعد امراة تسال زوجها أين كان ؟ وشهدت فتاة تقبل حماتها فى احدى النوافذ ، ورضى كل رجل عن امراته . ورضيت كل امراة عن بعلها ، وتزوجت التى لم تجد زوجا ، وتزوج من اقبح فتاة الشاب الذى لم تكن تملا عينه غير بنت السلطان !

وبدت الفضيلة على وجه الجزيرة سافرة كصبح الربيع ، جميلة كالحور ، آمنة كحمامة الحرم ، عظيمة كالملكوت الاعلى الذى هبطت منه ، ضاحكة العين والسن والفؤاد .

ولكن شيئا فشيئا وبانعدام روح التنافس والطموح ، وافول النجم الذى كان الشيطان يشرق به فى حياة كل رجل ليدفعه الى المجد ثم يحطم عنقه على احدى مراقيه ، أخذت ثروة الجزيرة العامة تنحط ، كما اخذ مستوى الجمال فى الجزيرة يتدهور بفناء الحاجة الى وجوده ، وبفقدان الزخارف المزيفة التى كانت تؤلف ثلاثة ارباعه

وبانحطاط مستوى الجمال ، وانعدام المتعة بخطف الثمر المحرم انتهى عهد اللحظات القصيرة المختلسة ، والمملوءة بالحب والسعادة والترقب والانتظار . ولم يعد هناك وحى للشعر والفن والادب ، فأجدبت قرائح الشعراء والادباء والفنانين ، وخبت الشعلة التى كانت تتألق فى نفوسهم وباتوا برءوس افرغ من رءوس حملة الاثقال

وفقدت زهرة الحب اشواكها وغلائلها فلم تعد لها قيمة ! وبات فراش الزوجية عبارة عن معامل تفريخ المبنين ، تماما مثل معامل تفريخ الدجاج

والفضيلة العظيمة الجميلة نفسها اخذت بالتدريج تفقد جلالها بحكم الدوام ، وانعدام القرين السيء الذى كان يسبغ عليها الجلال وباتت كالصحة على رءوس الاصحاء ، ماقيمتها اذالم تكن هناك علل ولا اسقام ؟ ...

والحياة اصبحت بالتدريج ، من غير ملح ، سمجة سماجة الكنافة فى أخرى ليالى رمضان ، اصبحت عبارة عن طعام ونوم ، ونوم وطعام ، وكفاح يسير فى سبيل الرغيف ، لاتقوى عليه جارحة ولا يتوهج عليه احساس ، واندفعت الجزيرة الى الذبول والضمور والزوال

ولكن الناس مع ذلك كانوا قانعين بحياتهم هذه قناعة البهائم ، لان القناعة هى ركن من اركان الفضيلة

والشخص الوحيد الذى كان يرقب هذه الحالة بقلق هو الشخص الوحيد الذى لم يكن واقعا قبل هذه المحنة تحت تأثير الشيطان ، اعنى كاهن المعبد .

اشتغل لما لم يعد له عمل فى المعبد بزراعة البطاطس وتربية الحمام

وكل التطور الذى مر بالجزيرة باركته نفسه ، الا منظر الرجال والنساء عرايا فى الطريق فظل كاسيا كما كان

وعندما كانت تمر به امرأة عارية كان يغض من بصره ، ويحيد عن الطريق الذى تسير فيه .

ولكن شيئا فشيئا بدأت عينه تتطلع من فروج اصابعه الى هذه الاجسام ، وشيئا فشيئا بدأت عينه تحترق بشغف الحرمان

وشيئا فشيئا بدأت روحه تصرخ فى اذنيه فى طلب المتاع

ولكن الشعلة المتقدة فى نفسه ظلت بلا وقود لانه مامن امرأة فى الجزيرة كانت تفهم فى هذه الايام لغة الفجور والفساد

واصبح الكاهن فى الجزيرة هو الرمز الوحيد للضعف البشرى ، أى لسطوة الشيطان

وأخذ الكاهن يهيم على وجهه فى الجزيرة وساقته

قدماه فى احدى الليالى الى رأس الجبل . الى فم البركان فتذكر فى الحال كلمة الشيطان

ولكنه فر من فم البركان ولحيته فى يده كانه يخشى عليها من ألسنة اللهيب ، وظلت روحه عدة ايام معتركا لليأس والتردد، ايدعو الشيطان وينقذ نفسه من عذابها ، ويضع حدا لانهيار الجزيرة ، ام يضحى بنفسه وبالجزيرة فى سبيل الخير والتقوى والفضيلة ! !

لكن المعركة لم تدم طويلا ، فقد انتصر الشيطان فى النهاية وذهب الكاهن الى فم البركان فقص لحيته غير آسف ، وقذف بها الى النار صارخا صراخ المجنون :

ابليس ، ابليس ، اين انت يا ابليس ؟

ورد عليه صوت لم يكن قادما من بطن البركان ، ولا من ناحية السماء ولا من قرارة الوادى ، ولكنه كان خارجا من بين شفتى الكاهن نفسه .. صوت معربد ينادي

ـ لبيك ، لبيك يامولاى ! !